

فاعلية السياق الثقافي الأنثروبولوجي الديني في تحليل النص عند علماء التفسير (الزمخشري أمودجا)

The effectiveness of the religious anthropological cultural context in analyzing the text among interpretive scholars (Al-Zamakhshari as an example)

ط.د عبد الرحمن أعميمش¹

¹المركز الجامعي أفلو - الجزائر -

مخبر الدراسات النحوية واللغوية بين التراث والحداثة في الجزائر/تيارت

a-amimeche@cu-aflou.edu.dz

د. أمبارك بن مصطفى²

²المركز الجامعي أفلو - الجزائر -

مخبر اللسانيات وتكنولوجيا التعليم وقضايا الأمن اللغوي/أفلو

e.benmostefa@cu-aflou.edu.dz

تاريخ القبول: 2024/12/17

تاريخ الاستلام: 2024/11/17

ملخص:

يعتبر السياق آلية من آليات التحليل النصي ، التي تكشف الغموض الذي يعتري النص ، من جوانب مختلفة ، فهو يربط النص بمحيطه الاجتماعي والثقافي ، لفك شفراته من حيث المعنى ، والترابط ، والاتحاد ، وقد تنبه علماء التفسير لأهميته في تفسير ، وتأويل النص القرآني ، فوظفوه ، بكل أنواعه للوقوف على مراد الله تعالى من عباده ، وكشف الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم ، ونحن من خلال هذه الورقة البحثية نسعى للوقوف على كيفية توظيف علماء التفسير للسياق الثقافي كآلية إجرائية في تحليل نصوص القرآن ، وإبراز فاعليته الإجرائية في توظيف العناصر الأنثروبولوجية في ذلك ، متخذين تفسير الزمخشري أمودجا لذلك.

الكلمات المفتاحية: السياق الثقافي . النص القرآني . لسانيات النص . الزمخشري . الكشف.

* المؤلف المرسل: عبد الرحمن أعميمش ، الايميل: a-amimeche@cu-aflou.edu.dz

Abstract:

Context is considered one of the mechanisms of textual analysis, which reveals the ambiguity in the text, from various aspects. It links the text to its social and cultural surroundings, in order to decode it in terms of meaning, connection, and cohesion. Interpretation scholars have become aware of its importance in interpreting and interpreting the Qur'anic text, so they employed it. of all kinds to determine what God Almighty wants from His servants, and to reveal the linguistic miracle of the Holy Qur'an, and we, through This research paper seeks to determine how interpretive scholars employ the cultural context as a procedural mechanism in analyzing the texts of the Qur'an, and to highlight its procedural effectiveness in employing anthropological elements in this, taking Al-Zamakhshari's interpretation as a model for this.

Keywords: cultural context - Quranic text - linguistics of the text - Al-Zamakhshari - Al-Kashshaf -

توطئة

إنّ النّص القرآني من النّصوص المقدسة التي تتمتع بخصوصية دينية واجتماعية وثقافية خاصة تستدعي مجموعة من الآليات ، تتضافر وفقها لكشف اسراره ، والوقوف على مواطن إعجازه ، وتظهر آلية السياق بارزة في ربط نص القرآن بمقام وزمان نزوله ، عند المفسرين متمثلة في أسباب النزول ، والمكي والمدني ، باعتبارها السياق الثقافي الذي يبرز الخصائص الثقافية المحيطة بالنّص ، وقد ظهر تفعيل المفسرين لهذا الأخير كآلية لتحليل النّص القرآني في مواطن كثيرة ، ومختلفة من القرآن الكريم ، كان الزمخشري فيها رائدا ومتميزا في توظيفه ، لإبراز المناسبة بين الألفاظ ، وبلاغة التراكيب ، وغيرها من المظاهر التي تتماشى مع ما طرحته الدراسات اللغوية الحديثة ، وهو ما يطرح إشكالية الفاعلية الإجرائية لهذا التوظيف وقدرتها على كشف غموض النص القرآني ، وانسجامه ، واعجازه ، حيث تطرح مجموعة من التساؤلات :

. ما الأهمية الإجرائية للسياق في الدراسات النصية؟

. وما العلاقة التي تربط السياق الثقافي بأسباب نزول القرآن؟

. وأين تكمن فاعلية السياق الثقافي الأنثروبولوجي الديني كآلية لتحليل النّص القرآني عند علماء التفسير ومظاهر ها عند الزمخشري؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا المنهج الوصفي سبيلا لذلك لكونه يتلاءم ومنهج الدراسة.

مفهوم السياق:

لغة

تشير المعاجم اللغوي العربية أنّ السياق في اللغة يأتي بمعان متعددة تتمثل في :
حدو الشيء (المبارك، 1399هـ/1979م)، والتقاود (علي ا.، 1414هـ، صفحة ج10، ص166)، و
التعاقب (حماد، 1408هـ/1987م، صفحة 1499/ج4)، ونزع الروح (حماد، 1408هـ/1987م،
صفحة 1500/ج4)، والسرد (عمرو ج.، 1419هـ / 1998م) ، وتوحي هذه المصطلحات في
دالاتها إلى معنى التتابع ، والتسلسل فقد جاء في المعجم الوسيط أنّ سياق الكلام ؛ تتابعه وأسلوبه الذي
يجري عليه (وآخرون)

اصطلاحاً :

للسياق تعريفات كثيرة منها:

أنّه "تتابع المفردات والجمل والتراكيب المترابطة لأداء المعنى". (الكنهل، 1438هـ / 1439هـ) ، وعلى هذا
الأساس عرفوا السّياق القرآني أنّه: "تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى" (الكنهل،
1438هـ / 1439هـ)، أمّا في الدراسات اللغوية الحديثة فيراد به كل ما يرتبط بأحوال المتتالية (الكنهل،
1438هـ / 1439هـ) اللغوية في ظروف استعمالها داخل النص وخارجه. (الكريم، 2009)، فهو يمثل
البيئة أو الظروف أو الحقائق والوقائع المحيطة بالنص التي تتضافر في ما بينها لإعطاء صورة شاملة عن شيء
ما (سلامة، 2016)

والذي نخلص إليه من هذه التعاريف هو أنّ بين السياق والمتتاليات اللغوية ترابط وتكامل يرمي إلى تحقيق
المعنى وإبرازه .

أنواعه

السياق أنواع كثيرة ومختلفة ، وقد رأى بعض العلماء أنّها أربعة أنواع :

1.1. سياق لغوي linguistic contest أو السياق الداخلي :

يهتم هذا السياق بالبنية ، وما فيها من وحدات صوتية ، وكلمات ، وجمل ، وانتظامها في الحدث اللغوي ، أو النص ، وفق نظام system متماسك ، يساعد على كشف المعنى ، أو وصفه ، بتتبع علاقاته المختلفة القبلية أو البعدية (الكريم، 2009، صفحة 401)، ولهذا السياق متعلقات تتعلق بالظواهر الصوتية كالنبر ، والتنغيم ، والوقف ، وظواهر نحوية كالتقديم والتأخير والحذف وغيرها من الظواهر المتعلقة بالإعراب ، والبناء (الكريم، 2009، صفحة 401).

ويعمل هذا السياق على صياغة التأويل داخل النص لضبط مواقع ووظائف ومدلولات العناصر اللغوية (الكريم، 2009، صفحة 405).

والذي نصل إليه أنّ لهذا السياق خاصية إجرائية في ربط الوحدات وتنسيقها وإبراز قيمتها الوظيفية.

1.2. سياق غير لغوي (الحال) linguistic non contest:

يربط هذا الأخير النص أو الخطاب بظروف انتاجه المختلفة ، من حيث الزمان والمكان ، والبيئة ، وما يتعلق بالمنتج ، والمتلقي وغيرها ، وتحديد أدق هو البيئة غير اللغوية لكلام ما (الكريم، 2009، صفحة 405)، فهو حسب هاليداي يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها ، كما يعتبر جسرا يربط الوحدات اللغوية ببيئتها (عيد، 2009)، حيث يسعى لإظهار درجة التفاوت في المعاني الموجودة في المواقف المختلفة للعبارة الواحدة (الكريم، 2009، صفحة 405)

وخلاصة القول أنّه يمثل الإطار الخارجي للنص وتكمن فاعليته في التفرقة بين المعاني التي قد يتوهم أنّها متشابهة في الظاهر ببيان دلالتها وهو ما يسهم في فهم النص فهما صحيحا دون تأويلات بعيدة عن قصدية منتجه.

1.3 السياق عاطفي emotional context

ويتميز هذا السياق بكونه مصاحبا للانفعالات المصاحبة للأداء الفعلي للكلام ، متعلقا بمقتضياته من حيث التأكيد، أو المبالغة أو الاعتدال (عمر أ.، 1993م)، فعلى تعبير ستيفن أولمان ؛ هذا السياق وحده من يمكنه أن يحدد لنا ما إذا كان ينبغي أخذ الكلمة على أساس أنّها تعبير موضوعي صرف ، أو أنّ المقصود منها التعبير على المواقف العاطفية والانفعالات التي تحدث أثناء التخاطب في الموقف الكلامي (حساني، 1434هـ / 2013م)، كتحديد البكاء من العويل، باعتبار الفرق بينهما هو درجة الانفعال رغم

حقلهما الدلالي المشترك ، فمفهوم العويل يدل على أنه بكاء معه صوت، وإلا فهو مجرد بكاء (إسماعيل، 1422هـ / 2002م)

وكما بين الغضب، والسخط، حيث أنّ الدلالة في الغضب تكون متساوية بين الكبير والصغير، أمّا السخط فدلالته لا تكون إلا من الكبير على الصغير (عبدالله) ، كأن يكون من الرئيس على المرؤوس لا العكس وهو ما يجعل هذا السياق آلية لكشف الحالات النفسية العاطفية الكامنة خلف الألفاظ وتحديد درجتها الانفعالية للمتلقي لتقريب المعنى.

4.4 السياق الثقافي cultural context

يمثل هذا السياق شبكة الأعراف الاجتماعية برمتها من شعائر دينية ، وعادات وتقاليد وغيرها (محمود، 2015) ، فهو يدل على المحيط الثقافي بمفهومه الواسع في المجتمع اللغوي ، حيث يختلف المفهوم الذهني للمداخل المعجمية باختلاف السياقات الثقافية (حساني، 1434هـ / 2013م، صفحة 289)، ويمثل في منظومة الاتصال ما يعرف بالإطار المرجعي (frame of refence) ؛ الذي يتمثل في خلاصة خبرات الإنسان المجتمعة على الأيام والسنين ضمن ظروف البيئة الاجتماعية ومؤثراتها (الكريم، 2009، صفحة 497) ، وتتجلى أهميته القصوى في العلاقة بين البنية الدلالية ، والبنية التصورية (الكريم، 2009، صفحة 498)، كالتغير الذي يتغير بموجبه مفهوم بعض المفردات بالانتقال من بيئة ثقافية لأخرى مثل مدلول الكفر الذي يشير في البيئة الدينية للجاحد لوحداية الله عزّ وجل ، المكذب برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم ، و في البيئة الزراعية يرمز للمزارع الذي يحرق الأرض ، يقول تعالى : " كَمْثَلٍ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، (الحديد 20)، و مدلول (ال جذر) الذي يتغير مفهومه بين ثلاث بيئات ثقافية هي البيئة الرياضية (رياضيات) ، والفلاحية، والصرفية النحوية ، فتكمن الوظيفة الأساسية لهذا السياق في فك شفرة النص (الكريم، 2009، صفحة 405)، وهو ما يعطي هذا السياق فاعلية في توضيح المفهوم حسب بيئته الثقافية ، أمّا بخصوص النص القرآني، يعد هذا السياق آلية فاعلة في الوقوف على الإعجاز اللغوي في النظم والتراكيب ، حسب بيئة الخطاب

. السياق في ضوء لسانيات الجملة

يذهب بعض الباحثين إلى أنّ لسانيات الجملة، أهملت السياق في دراستها للغة (الزواوي، 2017)،

ومع هذا نجد أنّ المفاهيم أو المصطلحات التي كان يوظفها دي سوسير مثل: (النظام، والنسق وغيرها) ، تشير إلى دور السياق في تحقيق أهداف الدراسة اللغوية لديه، ومن ذلك تأكيد أن " الكلمة لا قيمة لها ما لم توضع في نظام، يربطها بالكلمة السابقة أو اللاحقة لها أو في علاقة معها معا" (محمد، 1430هـ/2009م)، فهو بهذا يشير إلى أهمية الربط بين الوحدات اللغوية واتساقها في ظاهر النص، وهذا من خصائص السياق الداخلي (اللغوي) الذي يهتم بالعلاقات بين الأجزاء (زيد ن.، 1995م) ، ويعتبر بهذه عاملا مساعدا في كشف المعنى.

وحوت جهود رومان جاكبسون اللغوية اهتماما واضحا بالسياق حيث كان يرى أنه بالاعتماد على السياق الخارجي، تحدد طبيعة النص، وشكله (صبرة، 2015)، وفي مخططة التواصل إجابات لجوانب سياقية، من حيث المشاركة في عملية التخاطب، من ناحية المنتج (المرسل)، والمتلقي (المرسل إليه)، والرسالة، والشفرة، باعتبار الاتصالية لا تتحقق بين المرسل، والمتلقي إلا من خلال المشترك الثقافي بينهما (زيد ن.، 1995) .

أما خير مدرسة راعت السياق واتخذته ركيزة في دراستها للغة هي المدرسة السياقية الإنجليزية، حيث دعت إلى العناية بالموقف الكلامي، والجانب الاجتماعي للغة، متأثرة في ذلك بعالم الاجتماع مالفينوفسكي الذي أكد ضرورة العناية بما يقع أثناء التخاطب من ملابسات مختلفة تتعلق بالمحيط والمخاطب والمتلقي، والخلفية الثقافية لهما (محمد، 1430هـ/2009م، صفحة 02) لأنها تسهم في تحديد المعنى عمليا كوظيفة في السياق (محمد، 1430هـ/2009م، صفحة 02)، وفي ذلك يؤكد رائدها فيرث firth أنّ المعنى لا ينكشف في الوحدات اللغوية إلا من خلال تسييقها (الفقي، 1431هـ/2000م)، وبهذا كانت الدعوة إلى اعتبار المقام في التحليل، باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، لكن المبالغة في الاعتماد على سياق الموقف، والتقليل من فاعلية السياق اللساني، الذي يعدّ المساعد لتقريب المعنى، بالإضافة لعوامل أخرى جعلت نظرية هذه المدرسة غير تامة حسب الباحثين (عمر أ.، 1993م، صفحة 74/73)

وهو ما يوصلنا إلى أنّ الغموض الذي يكشفه لنا السياق في النص والمعنى لا يتحقق إلا من خلال تضافر السياقين معا الداخلي والخارجي دون فصل بينهما وهذا ما دعا إلى ضرورة التحول من الجملة إلى النص

السياق في ضوء اللسانيات النصية.

لقد كان للتطور الذي شهده الدرس اللساني بتغير القبلة البحثية من لسانيات تعتبر الجملة أكبر وحدة يمكن معالجتها، إلى دائرة أوسع هي النص دوافع متعددة، أهمها:

. حصر الدراسة في الجملة وعدم تجاوزها

. الفصل بين اللغة والموقف الكلامي (فنيفحر، 2019)

فظهرت أهمية السياق في هذا التحول منذ أول محاولة عملية لتجاوز التحليل حدود الجملة من خلال الإجراء العملي الذي طرحه هاريس (Z. Hariss) في بحثه الموسوم بتحليل الخطاب *Analisis Descour* حيث اهتم بتوزيع العناصر اللغوية، في النصوص، والروابط *Links* بين النص وسياقه (فنيفحر، 2019) وبهذا فتح الباب أمام اللسانيين للتحول من الجملة إلى النص وتجاوز العقدة التي لازمت الدرس اللساني ردحا من الزمن، واعتبار السياق أهم وسيلة إجرائية في تحليل النصوص، بدعوى أن النص ليس إلا حالة خاصة من البيئة والمحيط (الفقي، 1431هـ / 2000م)، فالرجوع إلى السياق من يقلل، ويحصر جميع التأويلات الممكنة ويدعم التأويل المقصود (يول، 1418هـ / 1994) وهذا يظهر العلاقة المتكاملة بين النص والسياق، وأن أحدهما يعتمد على الآخر.

وقد قام روبرت دي بوجراند R. D beaugrand، ودريسلر dresslar بتأكيد تلك الفاعلية الإجرائية للسياق في التحليل حين اعتبرا النص حدث اتصالي تتحقق نصيته من خلال سبعة معايير مختلفة:

. منها ما يتعلق بالنص: وهما معيارا السبك (cohesion)، الحبك (coherence)

. وما يتعلق بالمنتج (المرسل): وهو القصدية (Intentionality)

. ما يتعلق بالمتلقي: ويتمثل في المقبولية (acceptability)

. وثلاث معايير تتعلق بالسياق النصي المادي والثقافي وهي:

الإعلامية (informativity)، المقامية (situationality)، والتناص (intertextuality)

(بوجراند، 1418هـ / 1998م) (مصلوح، 2003م).

حيث يبرز من خلال هذه المعايير أن هناك تفاعلا ودينامية تقع في النص للسياق دور رئيس فيها باعتبار أكثر المعايير متعلقة به

والذي نصل إليه هو أنّ السياق باعتباره أهمّ آليات التحوّل من الجملة إلى النصّ ، يعدّ كذلك آلية في كشف غموض النصّ ، وتأويله ، وإبراز تماسكه.

السياق في التراث العربي :

لم تكن العناية بالسياق ولادة العصر الحديث إذ يحفل التراث العربي بدلالات واضحة تبرز عناية كبيرة بهذا الأخير من طرف علماء العربية، كسيبويه، وابن جني، والمبرد، والجرجاني (الفقي، 1431هـ/ 2000م، صفحة 1 / 105) وغيرهم ، من مفسرين ، وأصوليين ، وبلاغيين ، الذين نجد عندهم اهتماما زائدا بالسياق لاعتبارات عدّة أهمها فهم النصّ القرآني.

أ. الجانب البلاغي

اهتم البلاغيون بالسياق اهتماما كبيرا وعوّّلوا عليه في الكثير من الأحيان لإبراز مواطن الإعجاز في القرآن الكريم وتحديد الكلام البليغ من غيره ، فاعتنوا بالمقام ورأوا أنّ مطابقة الكلام للمقام يسهم في فهم الرسالة ، واستجابة المتلقي و تحقيق أهداف قصدية الخطاب ، ومقبوليته ، حيث ينقل الجاحظ (255هـ) عن ابن المعتز (296هـ) ما نصه " أنّ مدار الشرف ، على الصّواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، مع ما يجب لكلّ مقام من مقال " (بحر، 1422هـ) ، فهو بهذا يؤكد على المقام ، وهو ما جعل بعض الباحثين يرى أنّ الدّرس البلاغي العربي أسس على موافقة الكلام لمقتضى الحال (صبرة، 2015، صفحة 187) ، كما أنّ ما رآه البلاغيون مما على المتكلم من معرفة لأقدار المعاني والموازنة بينها وبين أقدار المستمعين ، والمراعاة للمقام الذي ينتج فيه الخطاب ، بأن يجعل لكل طبقة من المتلقين كلاما ، كي يعادل بين الألفاظ والمعاني ، والمقام ، والمقال " (بحر، 1422هـ، صفحة 1 / 131)، فيفرق بين مقام التشكر ، والشكاية ، والتهنئة ، والتعزية ، والمدح والذّم ، والترغيب والترهيب ، والجد والهزل ، وكذا خطاب المتلقي الذكي ، والغبي ، وغير ذلك مما نبّه عليه السكاكي (ت 626 هـ) في "مفتاح العلوم " (علي ا.، 1407هـ / 1987م)، اعتبر خطوة استباقية تقدّم بها علماؤنا على غيرهم في الدّراسات النّصية الحديثة ، وأظهرت وعيهم بأهمية السياق والمحيط الاجتماعي الثقافي بما فيه من معتقدات وعادات في بلورة المعنى ، وهو ما صرّح به الدكتور تمام حسان ، مبرزاً أنّ باعترافهم بفكرة المقام سبقوا زمانهم بألف سنة ، لأن الاعتراف بإجرائية المقام والمقال ، في التحليل لكشف المعنى اكتشف في الغرب جراء مغامرات العقل في الدّراسات

اللّغوية المعاصرة (عمر ت.، 1427هـ / 2006م)، يعطي الدرس البلاغي العربي قيمة تاريخية في الدراسة النصية واللغوية، ومكانة لا تجحد بين علوم اللغة.

والذي نخلص إليه من هذا أنّ البلاغين اهتموا بالسياق وراعوا وظيفته الإجرائية وفاعليته النصية متقدمين بذلك بخطوة على نظرائهم في اللسانيات الحديثة

ب. الجانب الأصولي

تنبه علماء الأصول أثناء بحثهم في نصوص الشريعة إلى أهمية السياق في استنباط الأحكام الشرعية، وفهم خطاب الله تعالى، وقد ظهر ذلك في أول مؤلف ألف في هذا العلم، حيث بوّب الشافعي (ت 204هـ) في كتابه الرسالة (باب الصنف الذي يبين سياقه معناه) (الشافعي، 1358هـ / 1940م)، وأوضح بن دقيق، فاعلية السياق في التحليل فقال: "أما السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى" (عباس، 1437هـ / 2016م)، وعضده ابن القيم في ذلك مشيراً أنّه وسيلة: "تبيّن المجمل، وتعيّن المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وبذلك هو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته" (أيوب، 1440هـ / 2019م)، وهو ما يجعله عمدة آليات الأصولي في كشف غموض نصوص الشريعة ومعرفة أحكامها لأنّ "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، والتّوازل"، مما يوجب على من أراد أن يفهم مقصود الشارع منها أن يربط آخر الكلام بأوله، وأوله بآخره ليفهم المراد (موسى، 1418هـ / 1997م)، وهو ما صرّح به الشاطبي في الموافقات

ومن هذا يتضح أنّ فاعلية السياق عند الأصوليين لها سلطة عظيمة على النص في فهم خطاب الله تعالى وتقريب دلالاته

ج. جانب علوم القرآن والتفسير

إذا كانت علوم كالبلاغة والأصول، وغيرها من العلوم العربية التي كان ظهورها خدمة للقرآن الكريم قد أدركت أهمية السياق وفاعليته في تقريب دلالات نصوصه وإبراز معانيها، فإنّ علماء علوم القرآن والتفسير كانوا أكثر دراية، وإدراكاً لذلك

فعدوا السياق من أهم الآليات التي يلج بها المفسر باب التفسير، فهو من دعائم التفسير التي قلما يسلم من لم يستند إليها من الزلل (عباس، 1437هـ / 2016م، صفحة ج 1/ 213)، إذ أنّ " طريق التوصل إلى فهم القرآن التّظّر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ، ومدلولاتها، واستعمالاتها بحسب السّياق " (الدين ا.، 1418هـ / 1957م) ، وهو ما أثني به الزركشي (794هـ) على الأصفهاني (502هـ) الذي تميّز عن غيره من علماء اللغة في تفسير مدلول ألفاظ القرآن في كتابه المفردات وذكر قيّداً زائداً عليهم اقتنصه من السّياق (الدين ا.، 1418هـ / 1957م) ، مبرزاً بذلك ، ما قد يقدّمه السّياق للنص القرآني، من زيادة في الفهم وحسن التأويل.

ولقد كانت الفتوى بالوجوب على المفسر مراعاة نظم الكلام وسياقه الذي سيق له ، وإن بدا له أنّه يخالف أصل وضعه ، لما ورد من التجوز في ذلك (الدين ا.، 1418هـ / 1957م، صفحة ج 1 / 317) ، وهو ما برع فيه الزمخشري في كشفه حيث كان يراعي ذلك كله (الدين ا.، 1418هـ / 1957م) ، وتمّ الاتفاق على ضرورة الاستناد إلى السياق في تأويل ملفوظات القرآن (الزواوي، 2017، صفحة 301) ، وبه نخلص إلى أنّ المفسرين كانوا أشدّ رعاية للسياق من غيرهم لما للنص القرآني من خصوصية تقتضي ذلك. علاقة السياق الثقافي بأسباب نزول القرآن:

كثيراً ما نجد في كتب التفاسير ربطاً بين آيات القرآن وسبب نزولها، حيث يتعلق مفهوم الآية تعلقاً شديداً بسبب نزولها، وهو ما يبرز أهمية معرفة هذه الأخيرة في فهم وتحليل نصوص القرآن. فقد نزل القرآن أولاً، مجملاً، ثمّ مفرقاً على حسب الأحداث والوقائع (عمرحوية) وقد كان لهذا النزول الثاني عدّة اعتبارات متعلقة بالمكان ، والزمان ، والمناسبة ، لفترة قدرت بثلاث وعشرين سنة ، ما ألزم اختلافاً في سياقات نزول العديد من آيات القرآن ، وفقاً لتلك الاعتبارات ، وهو ما جعل علماء علوم القرآن يشترطون على المفسر الإمام بأسباب نزولها (الرحيم، 1402هـ / 1986م) لقناعتهم أنّ معرفة سبب النزول سبيل فعال لفهم دلالة معاني كتاب الله تعالى (الدين ا.، 1422هـ / 2002م) ، باعتبار أنّ معرفة السبب تؤدي إلى العلم بالمسبب (الدين ا.، 1422هـ / 2002م) ، وهو ما يعني فهمهم أهمية استيعاب ظروف انتاج النص القرآني لتقريب دلالاته ، فقسموا القرآن قسمين مكّي ومدني كعملية إجرائية لضبط حدود النص المكانية ، و الزمانية ، وتحديد الخصائص الثقافية ، والاجتماعية التي يعرف بها (الدين ا.، 1394هـ / 1974م)، حتّى رأى بعض الباحثين أنّ معرفة المكّي والمدني تتوافق ما

يعرف باسم السياق الثقافي عند المحدثين ، الذي يتمثل في شبكة التقاليد الاجتماعية والثقافية والمؤسسية التي تحكم الثقافة الواحدة (عيد، 2009، صفحة 97) ، ما يعني أنّ السياق الثقافي كان عنصراً فاعلاً في العملية التفسيرية منذ أول وهلة ، لعدة اعتبارات منها أنّ الصحابة قد تيسر لهم ذلك ابتداءً لكونهم شهدوا نزوله أو تناقلوه بالرواية عمن شهدوه مباشرة ، فوظفوه في التفسير لتجلية المعنى ، لكن ما ينبغي أن نشير إليه هو أنّ نظرهم للسياق لم تكن مجرد إطار ساكن يقف عند حدود تاريخ النص ، بل طاقة دينامية تساهم بفاعلية في تشكيل الخطاب (عيد، 2009، صفحة 25)

ومن هنا نخلص أنّ علم أسباب النزول يمثل سياق الموقف لنص القرآن الكريم ، وعلم المكي والمدني يجسد السياق الثقافي الذي يفك شفرته ، وهما من أهم الآليات التي وظفها المفسرون في تحليل النص القرآني ، وتفسيره وفقاً لضوابط معينة توافق ما طرحته اللسانيات الحديثة ، بل تفوقها في الكثير من الأحيان .

فاعلية السياق الثقافي في تحليل النص عند الزمخشري :

يصنّف العلماء تفسير الكشاف لصاحبه أبو محمود جار الله الزمخشري من التفاسير البلاغية للقرآن الكريم ، التي عنت بكشف الجوانب اللغوية البلاغية للقرآن ، حيث وظف فيه لأجل ذلك آليات مختلفة ، فاقت الدراسات النصية الحديثة ، كان السياق بفاعليته العنصر البارز فيها بأنواعه المختلفة ، التي منها السياق الثقافي ، حيث تبرز ملامح هذا الأخير في الحدود التي رسمها علماء النص في عناصر أنثروبولوجية متكونة من معتقدات ، وأعراف ، وعادات وتقاليد وغيرها جليلة في تأويلات وتحليلات الزمخشري ، ووفقاً لذلك يمكننا إبراز فاعلية هذا السياق في تحليل النص القرآني بنماذج مختلفة

1. الشعائر الدينية (المعتقدات) :

يرى علماء النص أنّه مع الثقافة كسياق يمكن تفسير الكلمات والنظم النحوية ، وأعراف الكتابة والزمخشري وهو يحاول أن يكشف ترابط ألفاظ القرآن الكريم وتلاحم أجزاءه ، وظف لذلك آليات مختلفة منها المناسبة بين الألفاظ ، وكثيراً ما كان يجعل السياق آلية أو مطيّة لبلوغ تلك الغاية فمن ذلك عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤ ﴾ من الآية 24 من سورة البقرة

ينبه الزمخشري لقضية لغوية مهمة هي أنّ صلة اسم الإشارة "الذي" ، "التي" ينبغي أن تكون إشارتها لحديث معلوم قد سبق الإخبار عنه أو العلم به ، فهو بهذا يشير إلى الخلفية المعرفية الثقافية للمخاطب ، وهذا يتوافق مع ما أشار إليه مالينوفيسكي من أنّ السياق الثقافي يشمل كل التاريخ الثقافي الكامن في عقل

المشاركين في الخطاب ، والكامن في نوع النشاط الذي يمارسونه ، وكل هذا حسبهم يساهم في فهم المعنى العام للنص (محمد، 1430هـ/2009م) ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تشكلت تلك الخلفية عن النار بذلك الوصف ؟ ؛ وجوابه حسب الزمخشري ، أنّ علمهم بذلك كان بإخبار من أهل الكتاب ، أو سماع من النبي صلى الله عليه وسلم أو بما سبق نزوله من القرآن (عمرو ج.، 1407هـ) ، يقول الزمخشري : "فإن قلت: صلة «الذي» و «التي» يجب أن تكون قصة معلومة، للمخاطب، فكيف علم أولئك أنّ نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت: لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب، أو سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم (ناراً وقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) (عمرو ج.، 1407هـ) .

فهذا يشكل الإطار المرجعي الثقافي الذي علم من خلاله المخاطبون صفة النار التي أخبروا بها أو يخبرون عنها وهنا تظهر الفاعلية الأولى لهذا السياق في تحليل النص
ثمّ باعتبار المكي والمدني نجد الزمخشري يحاول إبراز الترابط بين نصوص القرآن موظفا التعريف والتنكير آلية لذلك حين تعرض لعله تنكير النار في سورة التحريم، وتعريفها في سورة البقرة، ثمّ بيّن أنّ ذلك في سورة التحريم، لأنّ الآية مكتبة، والآية من سورة البقرة مدنية ، فكانت "ال" التعريف فيها للعهد السالف الذكر المخبر عنه في الآية الأولى من سورة التحريم ، يقول : "قلت: فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكورة في سورة التحريم، وهامنا معرّفة؟ قلت: تلك الآية نزلت بمكة، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة. ثم نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً " (عمرو ج.، 1407هـ) وبهذا الإجراء أظهر الترابط بين الآيتين وأبرز التفاعل بين النص وسياقه اعتماداً على المكي والمدني .

ويبحث الزمخشري علاقة المناسبة بين كلمة "الناس" و"الحجارة" في الآية مستنداً على السياق الثقافي لفك شفرة هذه المناسبة التي أرجعها للثقافة الدينية المنتشرة في المجتمع المكي ، يقول الزمخشري : "فإن قلت: لم قرن الناس بالحجارة " (عمرو ج.، 1407هـ)، ليعلق على ذلك مجيباً أنّهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا، فنحتوها وعبدوها واتخذوها من دون الله أنداداً ، فقرّضهم الله تبارك وتعالى بها (عمرو ج.، 1407هـ، صفحة ج1/103) ، وذلك لما اعتقدوا فيها من الشفاعة ودفع المضرة عنهم ، فجعلها الله عذابهم بأن قرّضهم بها في النار ، زيادة في إيلاهم ، واغاظهم وتحسيرهم ، وهذا يتوافق مع ما أشارت إليه الدكتورة عزة شبل

محمد في كلامها على ما يعتمد عليه كل تحليل ، والذي منه أثر الكلام من حيث النوعية الوظيفية ، كالإقناع ، أو الألم ، أو الإغراء ، أو الضحك وغيرها (محمد، 1430هـ/2009م).
وهذا يكون للسياق الثقافي فاعلية في إبراز الخلفية المعرفية للنص، وإبراز ترابطه، وانسجامه باعتباره يكشف
الخبائيا المتعلقة بالوظائف الكلامية للمشاركين في النص وهو ما يعد كشفا لمظاهر أنثروبولوجية متعلقة باللغة
كظاهرة إنسانية

2. باعتبار البيئة والمحيط الأنثروبولوجي :

باعتبار البيئة جزءا من محيط الثقافة المتعلقة بالألفاظ نجد الزمخشري يظهر بلاغة وتماسك النص القرآني من
حيث الحذف، والذكر
فمن ذلك الحذف للفظه البرد عند قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرُبِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ
﴾ من الآية (81) من سورة النحل ، يبين الزمخشري أنّ السرابيل هي: القمصان والثياب من الكتان والقطن
والصوف وغيرها مما يتقي به الإنسان الحر (عمرو ج.، 1407هـ، صفحة ج2 / 625) ؛ ثمّ يقف أبو
محمود " لم يذكر البرد " ، ليعلّل ذلك بأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم من البرد باعتبار البيئة التي يغلب
عليها المناخ الصحراوي الحار ، وقلما يهتمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً . (عمرو ج.، 1407هـ، صفحة
ج2 / 625) وبهذا يتجلى أنّ ثقافة اللباس الذي يغلب على عاداتهم ارتداؤه لباس يتصف بالرقّة باعتبار
حرارة المناخ ذات الطبيعة الصحراوية.

إنّ الزمخشري بهذا الطرح يبرز بلاغة القرآن الكريم بتحديد بيئة الخطاب هي بيئة يغلب عليها المناخ الحار،
ومراعاةً للمخاطبين الذين خيروا هذه البيئة بتجارهم كان الخطاب بذكر الحر دون البرد، كما لا يمكن أن
نغفل أنّ الزمخشري قد خبر هذه البيئة أعواما حيث جاور الكعبة وألف فيها كشافه وهذا يتماشى مع أشار
إليه الدكتور جمعان بن عبد الكريم أنّ السياق الثقافي يمثل خلاصة الخبرات المجتمعة على مر الزمان ضمن
ظروف البيئة الاجتماعية ومؤثراتها (الكريم، 2009، صفحة 498) .

والذي نخلص إليه إنّ هذا التوظيف لعامل المناخ في التحليل يكشف مدى الوعي الذي كان يسود المفسرين
الذين يعدّ الزمخشري النموذج المثالي لهم في اعتبار توظيف المقام والمحيط بما من ثقافة الأنثروبولوجية المختلفة
في كشف التفاعل الذي بين النصّ وسياقه.

3- باعتبار الأعراف :

لقد برع الزمخشري، في كشفه في اظهار الخصائص النبوية، والدلالية للتركيب في القرآن الكريم، وكشف جماها وروعة بلاغتها، من خلال ما وظفه في ذلك من الآليات المختلفة، مرتكزا على التفاعل الذي يربط النص بسياقه، والمشاركين فيه ومن ذلك، بلاغة التركيب من حيث التقديم والتأخير حيث نجد الزمخشري يوظف السياق الثقافي في كشف تقديم الإناث على الذكور الإناث في الآيتين (49)، (50) من سورة الزخرف عند قوله تعالى : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠﴾

فيذكر أنّ علة تقديم الإناث هو سياق الكلام الذي مفهومه أنّ الله فاعل لما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان ، الذي في عرفه أنّ البشارة بالأنثى تعدّ مصيبة ، حيث نجد وصف القرآن للحالة التي يصير إليها حال بشارته بها (الأنثى) في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾ (النحل) ، حيث يرى أنّ ذلك مجلبة للعار والخزي ، ومن ثمّ سارع لوئدها ، فكان تقديمهنّ أهمّ لأنّ هنّ من جملة ما لا يشاؤه الإنسان والأهم واجب التقديم ، وآخر الذكور لأنهم من جملة ما يشاؤه الإنسان ، ثمّ تدارك تأخيرهم وأحقّيتهم بالتقديم ، بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير (عمرو ج.، 1407هـ، صفحة 232 / ج4)، كأنه قال: "ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كل جنس حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدمهنّ، ولكن لمقتض آخر " (عمرو ج.، 1407هـ، صفحة 232 / ج4) .

وبهذا يتضح كيف كان تفعيل السياق الثقافي في كشف التفاعل الحاصل في هذا النص القرآني وفقاً للأعراف المنشرة من تفضيل للإناث على الذكور ، والنظرة السلبية للأنثى واعتبارها من البلاء الذي يصيب الإنسان وبذلك فكت شفرة الإعجاز القرآني .

خاتمة:

في الأخير نصل إلى مجموعة من النتائج نوردتها على شكل نقاط كالتالي:
إنّ السياق من أهم الآليات التي وظفها علماء قديما وحديثا في تحليل النصوص وكشف غموضها .
لسانيات الجملة فصلت بين السياق اللغوي والسياق غير اللغوي في دراستها للجملة .

. لسانيات النص اعتمدت السياق آلية لتجاوز التحليل حدود الجملة.
. علماء البلاغة العربية اهتموا بالمقام وسبقوا بذلك غيرهم من علماء اللسانيات النصية الحديثة.
. السياق آلية فعالة في كشف غموض النص القرآني عند الأصوليين.
. علم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني يمثلان السياق الثقافي الاجتماعي عند علماء القرآن
. السياق الثقافي من أهم الآليات التي وظفها الزمخشري في تحليل نصوص القرآن
. فاعلية السياق الثقافي الأنثروبولوجي الديني في تحليل نصوص القرآن توافقت وتجاوزت ما طرحته اللسانيات الحديثة.

المصادر والمراجع

- إبراهيم مصطفى وآخرون. (بلا تاريخ). المعجم الوسيط. دار الدعوة.
ابن الأثير مجد الدين أبو السعد المبارك. (1399هـ/1979م). النهاية في غريب الحديث والأثر. بيروت: المكتبة العلمية.
ابن منظور بن مكرم بن علي. (1414هـ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
أحمد حساني. (1434هـ/2013م). مباحث في اللسانيات (المجلد 2). دبي، الإمارات العربية المتحدة: منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية.
أحمد مختار عمر. (1993م). علم الدلالة (المجلد 4). القاهرة: عالم الكتب.
الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. (1422هـ / 2002م). فقه اللغة وسر العربية (المجلد 1). إحياء التراث العربي.
الجاحظ عمرو بن بحر. (1422هـ). البيان والتبيين. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
الجوزية ابن قيم محمد بن أبي بكر أيوب. (1440هـ/2019). بدائع الفوائد (المجلد 5). بيروت، لبنان: دار ابن حزم.
الدكتور محمد عمرحوية. (بلا تاريخ). نزول القرآن الكريم وتاريخه وما يتعلق به. المدينة المنورة، السعودية : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الدكتورة حنان محمد فنيفحر. (يناير، 2019). الدرس اللغوي العربي بين لسانيات الجملة ولسانيات النص . مجلة البحوث الأكاديمية ، صفحة 275.

الدهلاوي ولي الله الإمام أحمد بن عبد الرحيم. (1402 هـ / 1986م). الفوز الكبير في أصول التفسير (المجلد 2). (سلمان حسيني الندوي، المترجمون) القاهرة، مصر : دار الصحوة.

الزركشي أبو عبد اله بدر الدين. (1418 هـ / 1957م). البرهان في علوم القرآن (المجلد 1). دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاؤه.

السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي. (1407 هـ / 1987م). مفتاح العلوم (المجلد 2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

السيوطي جلال الدين. (1422 هـ / 2002م). لباب النقول في أسباب النزول (المجلد 1). بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.

السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين. (1394 هـ / 1974م). الإنشقاق في علوم القرآن. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشاطبي أبو إسحاق بن موسى. (1418 هـ / 1997م). الموافقات. دار بن عفان. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله. (بلا تاريخ). الفروق اللغوية. القاهرة، مصر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

الفارابي الجوهري أبو نصر الله إسماعيل بن حماد. (1408 هـ / 1987م). الصحاح تاج العربية وصحاح العربية (المجلد 4). بيروت . لبنان :. دار العلم للملايين..

إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة. (2016). قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه. عين شمس: كلية والآداب والعلوم والتربية جامعة عين شمس.

براون يول. (1418 هـ / 1994). تحليل الخطاب. (د . محمد لطفي الزليطي ، و د . منير التريكي، المترجمون) المملكة العربية السعودية: جامعة الملك سعود.

بسمة بنت عبد الله بن حمد الكنهل. (1438 هـ / 1439 هـ). التفسير بالبيان المتصل في القرآن الكريم . المملكة العربية السعودية: كلية علوم الدين . قسم علوم القرآن ..

تمام حسان عمر. (1427 هـ / 2006م). اللغة العربية معناها ومبناها (المجلد 5). عالم الكتب.

جار الله الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو. (1407هـ). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (المجلد 3). بيروت: دار الكتاب العربي.

جار الله الزمخشري محمود بن عمرو. (بلا تاريخ). أساس البلاغة. بيروت. لبنان :: دار الكتب العلمية. جمعان بن عبد الكريم. (2009). إشكالات النص دراسة لسانية نصية (المجلد 1). الدار البيضاء، المغرب : المركز الثقافي العربي.

خالد حمدي صبرة. (2015). اللسانيات النصية في الدراسات العربية الحديثة (المجلد 1). بيروت: منشورات ضفاف.

روبرت دي بوجراند. (1418هـ / 1998م). النص والخطاب والإجراء (المجلد 1). (تمام حسان، المترجمون) القاهرة، مصر: عالم الكتب.

سعد مصلوح. (2003م). في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة (المجلد 1). الكويت: مكتبة الكويت الوطنية.

صباحي إبراهيم الفقي. (1431هـ / 2000م). علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية (المجلد 1). القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع.

عبد الباسط عيد. (2009). النص والخطاب قراءة في علوم القرآن (المجلد 1). القاهرة: مكتبة الأدب. عبد الرحمان عبد السلام محمود. (2015). النص والخطاب من الإشارة إلى الميديا

عزة شبل محمد. (1430هـ/2009م). علم لغة النص النظرية والتطبيق (المجلد 2). القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.

فضل حسن عباس. (1437هـ / 2016م). التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث (المجلد 1). الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع.

محمد بن إدريس الشافعي. (1358هـ / 1940م). الرسالة (المجلد 1). مكتبة الحلبي. مختار الزواوي. (2017). فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني (المجلد 1). وهران، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.

ناصر حامد ابو زيد. (1995م). النص، السلطة، الحقيقة، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.